على
فراش الموت

عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

سبحانك اللهم خالق كل شيء حتى المـوت، وحتى ملك الموت، تباركت ربنا، وتعاليت، يا مَنْ إذا أردت شيئًا قلت لـه: كن، فيكون. لك الحمد في الأولى والآخرة، وإليك المرجع والمآب.

أما بعـــــد:

فهذه – أخي المسلم – موعظةٌ في الموت وما يتعلق بـه ... في الموت الذي كتبه الله – تعالى – على كل حي في هذه الدنيا التي ستزول وتفنى لا محالة.

ذلك لأن كثيرًا من الناس اليوم لا يعطي اهتمامًا لتلك الرحلة الكبرى، والقضية العظمى التي يحكم فيها أحكم الحاكمين، فلا معقب لحكمه، ولا استئناف.

إنها ساعة رهيبة، ما خاف من عاقبتها أحد إلا ونجا، عندما تذكرها فعمل لها، وما لها عنها أحد إلا تحسر وندم حين قرب أجله، ودنا فراقه ... إنها الساعة الحاسمة التي يتمنى الكثيرون أن لا يذوقوا كأسها، ولا يشربوا مرارتها!! ولكن كيف ... وأنى لهم ذلك؟!

كل نفس ذائقة الموت

لا بد من الموت، لأنه إظهار لقدرة الله، وبرهان على البعـــث، ودليل على الوقوف أمام الله رب العالمين، فكيف يسير العالم منـــذ خلق والناس يتساقطون كل يوم، بل كل لحظة؟ وكيف يحاســـب أولئك جميعًا أمام رب العالمين؟ وكيف يتأكد الناس من أن ظالمًا لن يعيث في الأرض فسادًا طويلاً؟

إن الموت دليل لهم على حياتهم الباقية التي أرادها لهم رب البرية بمقاييس معلومة، وموازين سديدة محكمة، فخالق الموت قدير علـــى محاسبة الناس جميعًا.

وهذا الظالم لن يبقى على الأرض طويلاً ما دام البشر يموتون، والمطمئن لقلوبهم أن الموت غير معلوم.

إذن ... فالموت لا بد منه ليتعظ الناس، وتستقر أحوالهم، فكان أقوى عظة، وأفظع خطبًا، وأشنع أمرًا، وأمرّ كأسًا ... هل ننســـى أننا نؤخذ من فراشنا، ونشد على لوح، ونكفن بأكفان لا تحمل في طياتها سوانا، ونوضع في القبور ليأكلنا الدود!

إنها ساعة يتحير فيها العقل ... يرجع إلى رشده، يعمل فكـــره ... يهيب بالناس أن يحسنوا العمل، وأن يرفعوا راية «لا إله إلا الله، محمدًا رسول الله».

وها نحن أولاء في دار الدنيا، فهل نجتمع جميعًـــا ولا نتفـــرق، ونتحاب، ولا نتخاصم، ما دام هذا مصيرنا؟

الموت يعُمُّنا...

والقبر يضمُّنا ...

والقيامة تجمعنا ...

والله يحكم بيننا، ويفصل فينا، وهو أحكم الحاكمين [١].

يحكى أن الرشيد لما اشتد مرضه أحضر طبيبًا طوسيًا فارسـيًا، وأمر أن يعرض عليه ماؤه – أي بوله – مع مياه كـثيرة لمرضـى، وأصحاء، فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد، فقال: قولوا لصاحب هذا الماء يوصي، فإنه قد انحلت قواه، وتداعت بنيته. ولما استعرض باقي الماء شعر بقدوم الموت فنقلوه حيـث فاضـت روحه، فيئس الرشيد من نفسه، وأنشد:

إن الطبيـب بطبـه ودوائـه   لا يستطيع دفاع نحب قد أتـى

ما للطبيب يموت بالداء الـذي   قد كان أبرأ مثله فيمـا مضـى

مات المداوي والمداوَى والـذي   جلب الدوا أو باعه ومن اشترى

وبلغه أن الناس أرجفوا بموته. فاستدعى حمارًا وأمر أن يحمـل عليه، فاسترخت فخذاه. فقال: أنزلوني صدق المرجفـون، ودعـا بأكفان فتخير منها ما أعجبه، وأمر أن يحفر قبره، فشق له قبر أمام فراشه، ثم اطلع فيه فقال: ما أغني عني ماليه. هلك عني سـلطانيه. فمات من ليلته [٢].

(١) «عذاب القبر ونعيمه وعظة الموت» لعبد اللطيف عاشور ص٧-٨.

(٢) «التذكرة» للقرطبي (٤٣/١، ٤٤)، ط. دار الكتاب العربي، الأول ١٤٠٨هـ.

فأعدَّ للأمر الشديد عدته، وتأهبْ للرحيل، واعملْ، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

تــزود مـــن التقـــوى فإنـــك لا تـــدري

إذا جنّ ليـــل هـــل تعـــيش إلى الفجـــر؟!

فكم من صحيح مـــات مـــن غـــير علـــة

وكم من عليل عاش حينًـــا مـــن الـــدهر؟!

وكم مـــن صـــبي يرتجـــي طـــول عمـــره

وقد نســـجت أكفانـــه وهـــو لا يـــدري!

وكـــم مـــن عـــروس زينوهـــا لزوجهـــا

وقـــد قبضـــت روحاهمـــا ليلـــة القـــدر!

فما ظنك – رحمنا الله وإياك – بنازل ينزل بـــك، فيـــذهب رونقك وبهاك، ويغير منظرك، ورؤياك، ويمحو صورتك وجمالـــك، ويمنع من اجتماعك واتصالك، ويردك بعـــد النعمـــة والنضـــرة، والسطوة والقدرة، والنخوة والعزة، إلى حالة يبادر فيها أحب الناس إليك، وأرحمهم بك، وأعطفهم عليك، فيقذفك في حفـــرة مـــن الأرض، قريبة أنحاؤها، مظلمة أرجاؤها، محكم عليـــك حجرهـــا وصيدالها ...

الموت يأتي بغتة

يروى أن أعرابيًا كان يسير على جمل له، فخر الجمـــل ميتًـــا، فنزل الأعرابي عنه، وجعل يطوف به ويتفكر فيه، ويقول: ما لك لا تقوم؟ ما لك لا تنبعث؟ هذه أعضاؤك كاملة، وجوارحك سالمة؟!

ما شأنك؟

ما الذي كان يحملك؟

ما الذي كان يبعثك؟

ما الذي صرعك؟

ما الذي عن الحركة منعك؟

ثم تركه وانصرف متفكرًا في شأنه، متعجبًا من أمره [1].

وأنشدوا في بعض الشجعان مات حتف أنفه:

جاءته من قبل المنـــون إشـــارة   فهوى صـــريعًا لليـــدين وللفـــم
ورمى بمحكم درعـــه وبرمحـــه   وامتد ملقى كـــالفتيق الأعظـــم
لا يستجيب لصـــارخ إن يدعـــه   أبدًا ولا يرجى لخطـــب معظـــم
ذهبت بســـالته ومـــر غرامـــه   لمـــا رأى حبـــل المنيـــة يرتمـــي
يا ويحه من فـــارس مـــا بالـــه   ذهبـــت مُروَّتـــه ولمـــا يكلـــم
هذي يـــداه وهـــذه أعضـــاؤه   ما منه من عضـــو غـــدًا بمـــثلم
هيهات ما حيل الردى محتاجـــة   للمشـــرفي ولا اللســـان اللهـــذم

(١) التذكرة (١/١٦، ١٧).

هي ويحكم أمر الإلــه وحكمــه والله يقضــي بالقضــاء المحكــم
يا حسرتا لو كان يقدر قــدرها ومصيبة عظمــت ولمــا تعظــم
خــبر علمنــا كلنــا بمكانــه وكأننــا في حالنــا لم نعلــم [1]

(١) المرجع السابق.

الموت وموقف الأحياء منه

مع أن الناس جميعًا على يقين لا شك معه من الموت الذي هو نهاية كل حي، حيث يرون ذلك رأي العين في الآباء والأمهــات، والأهل، والقريب والبعيد، والصحيح والسقيم، والصغير والكــبير، فإن حب الحياة والتعلق بها يفسح لهم في الآمال، فلا يكــاد ينظــر كثير منهم إلى الموت إلا على أنه غريب لا عودة له، أو خيــال لا حقيقة له.

ولهذا الشعور المخادع الذي يخدع الناس عن الموت، وانقطاع الحياة به، مع شهودهم له، وتيقنهم منه، فقد جــاءت في القــرآن الكريم آيات تذكر بالموت، حتى يتنبه له الغافلون عنــه، ويهيئــوا أنفسهم للقائه ... قال سبحانه: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَــوْتِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْــتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾ [ق: ١٩]، ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْــهُ فَإِنَّــهُ مُلَاقِيكُمْ**﴾ [الجمعة: ٨].

فإذا كان هذا هو موقف الناس من الموت، وذهولهم عنه، فكيــف يكون موقفهم من البعث والحياة بعد الموت، وهم لم يروا ميتًا يبعث، ولا مقبورًا يسعى إليهم من قبره، ويخبرهم بما لقي في هذا القبر؟

إن الأمر يحتاج إلى إيمان بالله — تعالى — أولاً، وتصديق رسله ثانيًا، ثم تصديق ما يخبر به الرسل — عليهم الصلاة والسلام — عن ربهم، ببعث الموتى من القبور، وحشــرهم إلى موقــف الحســاب والجزاء بين يدي رب العالمين.

أسباب كراهية الموت

الموت سنة مشاهدة تتكرر كل يوم، ومع ذلك يكرهه النـــاس ويخافونه، ويرهبون لقاءه، وذلك لأسباب شتى منها:

* إن إتيان المحظورات والمآثم التي يعاقبهم عليها ربهم – جـــل وعلا – يوم لقائه يخيفهم من ذلك اللقاء.

* ومنها حب الحياة، وسعة الأمل، وفسحة الرجاء.

* ومنها قلة الاستعداد له، ولما بعده مع الاغترار بالحيـــاة، لأن الإنسان في صحته وقوته يغتر بدنياه، وقد يخيل إليه أنهـــا واســـعة مبسوطة، وكأنه يجهل أو يتجاهل أن أجله المحدود يتربص به بـــين حين وآخر، وهو لا يدري متى يأتي!!

* ومنها سيطرة الرغبة في الخلود على نفوس الناس، فتـــدفعهم إلى التعبير عن ذلك بإدخال المال، وبناء القصور، ولذلك لما ســـئل بعضهم: لماذا نكره الموت؟

قال: لأنكم عمرتم دنياكم، وخربتم آخرتكم، فكرهتم الانتقال من دار عمرتموها إلى دار خربتموها!!

والعلاج في مثل هذا أن ينظر العبد كـــل ســـاعة في أطرافـــه وأعضائه، ويتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة، وكيف تتفتت عظامها، وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولاً أو اليسرى، فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود، وما له من نفسه إلا العلـــم النافع، والعمل الخالص لوجه الله – تعالى .

وعليه أن يتفكر فيما سيورده من عذاب القبر أو نعيمه، وسؤال منكر ونكير، ومن الحشر، والنشر، وأهوال القيامة، وقرع النداء يوم العرض الأكبر. فأمثال هذه الأفكار تجدد ذكر الموت على قلبــه، وتدعوه إلى الاستعداد له.

ماذا ننتظر

أيها الأخ المبـــارك:

أنت ومن في الأرض جميعًا ستخرجون من الـــدنيا لا محالـــة، وبعدها ستكون في عداد الأموات.

فما أنت إلا من أبناء الموت، وأنت تنتظر موعد طلبك للخروج من الدنيا، كذلك الذي قد أخرج مع فوج كبير إلى ساحة الإعدام وهو ينتظر دوره الذي لا مفر منه، وسيأتيك الموت في لحظة معينة.

فقد تصبح مع الأحياء فلا تمسي إلا مع الأموات...

وقد تمسي مع الأحياء فلا تصبح إلا مع الأموات ...

وما أنت إلا أيام، كلما مر يوم نقصت وقربت من أجلـــك. ستخرج راضيًا أو كارهًا.

وسيخرج مثلك الملوك والرؤساء والأغنياء كمـــا خرجـــوا في الأمم الماضية، وكما يخرج الأفراد والفقراء والضعفاء، وســـتخرج كل الشعوب كما خرجت من قبل ... فليس الناس إلا عبيدًا لمـــن أحياهم وأماتهم بدون إذن منهم أو اختيـــار ... ســـتترك مالـــك، وسلطانك، وأهلك، وأحبابك، وعلمك، وعملـــك، وخبرتـــك، وصحتك، وجمالك ... وسيعود جسدك إلى ما بدأ منه.

ستأتي اللحظة التي ينسلخ فيها لحمك من عظامك، وتتمـــزق فيها عروقك وأحشاؤك ...

وسيصبح هذا الجسد الحي أمامك قليلاً من العظام تحت كتلـــة

من التراب...

سيطول بك المقام كما طال بسابق الأقوام ... فهـــل ســـألت نفسك عن حقيقة مصيرك؟!

وهل فهمت ما سيكون من أمرك في مستقبلك الطويل؟! إنك ومن في الأرض من الدول والشعوب تبذلون أقصى الجهود لتـــأمين مستقبل يعد بالسنين، ولا يلبث أن تنتهي أعوامه وأيامه؟

فماذا أعددت لمستقبلك الدائم؟

وهل هناك مستقبل؟

وهل هناك حياة بعد هذه الحياة؟

وهل ترتبط تلك الحياة بهذه الحياة؟

وما هو طريق الفوز والنجاة؟

وما الذي يؤكد لنا هذه الأخبار؟

إن الذي خلقنا أول مرة من تراب ليس بعسير عليه أن يبعثنـــا مرة أخرى بعد أن نعود ترابًا.

إن الذي ظهرت حكمته من خلقنا وأطوار خلقنا لا شك أنـــه قد أراد حكمةً من موتنا ستظهر إن انتقلنا إلى طورنا الجديد بعـــد الموت.

إن الذي أتقن خلق الإنسان من نطفة تمنى لن يتركه يـــذهب سُدى ... إن الذي أقام الحق في الأرض والسماء سيقيم الحق فيما

عمل الإنسان من خير أو شر، فيجزي المحسن كما قال — سبحانه -: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ويعاقب المسيء كما قال — تعالى — في أهل الشقوة والضلال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

إن الذي يبدأ الخلق ثم يعيده قادر على إعادة خلقنا مرة ثانية كما بدأه أول مرة.

إن الأمر خطير إذن ... إنه أمر المستقبل الدائم والمصير الدائم.

إما حياة النعيم ... أو حياة الجحيم (١).

(١) «طريق الإيمان» للشيخ/ عبد المجيد الزنداني ص٢١-٢٥ بتصرف.

مع عمر بن عبد العزيز

خطب عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أيها الناس:

إنكم لم تخلقوا عبثًا ولن تتركوا سدى. وإن لكم معادًا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم، فخاب وشقي غدًا عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء، وجنته التي عرضها السموات والأرض. وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف واتقى، وبـــاع قلـــيلاً بكثير، وفانيًا بباق، وشقوة بسعادة، ألا ترون أنكـــم في أســـلاب الهالكين، وسيخلف بعدكم الباقون؟ ألا ترون أنكم في كـــل يـــوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله – عز وجل – قد قضى نحبه، وانقطع أمله، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، وواجـــه الحســـاب؟ وأيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي. ولكنها سنن من الله عادلة، آمر فيها بطاعته، وأنهى فيها عن معصيته، وأستغفر الله»، ووضع كفه على وجهه، وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته. وما عاد إلى مجلسه حتى مات.

وقال في إحدى خطبه:

«إن الدنيا ليست بدار قراركم. دار كتب الله عليها الفنـــاء، وكتب على أهلها الظعن عنها.

فكم من عامر موثق عما قليل يخرب، وكم من مقيم مغتــبط عما قليل يظعن، فأحسنوا – رحمكم الله – منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، إنمــا الــدنيا كفيء ظلال قلّص فذهب، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قريــر العين، إذ دعاه الله بقدره، ورماه بيوم حتفه، فسلبه آثاره ودنيـــاه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه. إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر. إنها تسر قليلاً وتحزن كثيرًا».

المفاجأة

قال أحد الفضلاء:

كم من صاحب لي، لو شئت سميته، أطلق نفسه في شــهواتها، ووقع أسير اللذة، وغفل عن ذكر الموت والحساب، فلما هداني الله — عز وجل — لطاعته وامتثال أوامره، وتحقيق مخافته، فزعــت إلى صاحبي، أنصحه وأرغبه، وأرهبه، فما كان منه إلا أن اعتذر بشبابه (!) وغرّه طول الأمل...

فو الله لقد فاجأه الموت، فأصبح اليوم في التراب دفينًا، وصــار بما قدم من السيئات مرتبطًا رهينًا، ذهبت عنه اللــذات، وفارقتــه الغانيات، وبقيت في عنقه التبعات، وأقبل على الجبار ... بأعمــال الفسقة الفجار ...

أعاذني الله وإياك ... من صحيفة كصــحيفته، ومــن خاتمــة كخاتمته.

فاتق الله — يا عبد الله — ولا يكن مثلك كمثله، وأنت تعلم أن هذه الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وأن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، واذكر ساعة الموت والانتقال، وما يتمثل لديك ساعتها من كثرة السيئات، وقلة الحسنات، فما وددت عمله في تلك الساعة، فعجل بعمله من اليوم، وما وددت اجتنابه فمن الآن:

فلــو أنــا إذا متنــا تُركنــا   لكان الموت راحة كــل حــي

ولكنـــا إذا متنـــا بعثنـــا ونسأل بعده عن كل شـــيء [(١)]

وأنشدوا:

أذكـــر المـــوت ولا أرهبـــه إن قلـــبي لغلـــيظ كـــالحجر
أطلب الـــدنيا كـــأني خالـــد وورائي المـــوت يقفـــو بـــالأثر
وكفى بالموت فـــاعلم واعظًـــا لمن المـــوت عليـــه قـــد قـــدر
والمنايـــا حولـــه ترصـــده ليس ينجي المرء منـــهن المفـــرّ

وقال آخر:

بينـــا الفـــتى مـــرح الخطـــا، فـــرح بمـــا
يسعى لـــه إذ قيـــل: قـــد مـــرض الفـــتى
إذ قيـــل: بـــات بليلـــة مـــا نامهـــا
إذ قيـــل: أصـــبح مثخنًـــا مـــا يرتجـــى
إذ قيـــل: أصـــبح شاخصًـــا وموجهًـــا
ومعلـــلاً. إذ قيـــل: أصـــبح قـــد قضـــى

(١) «الموت عظاته وأحكامه» لعلي حسن عبد الحميد ص١٦-١٧.

فوائد ذكر الموت

إن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج من هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية.

والإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فـــإن كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه. فإنه لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة فـــذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، لقطعه عنها:

ولقد أحسن من قال:

اذكـــــر المـــــوت هـــــادم اللـــــذات
وتجهـــــز لمصــــــرع ســـــوف يـــــاتي

وقال غيره:

واذكــــر المـــــوت تجــــد راحــــة
في ادكـــــار المـــــوت تقصـــــير الأمـــــل

كان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيـــل. الرحيل. فلما توفي فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه، فقيل: إنه قـــد مات، فقال:

ما زال يلهج بالرحيل وذكـــره حـــتى أنـــاخ ببابـــه الجمـــال
فأصــــابه متيقظًـــا متشــــمرًا ذا أهبـــة لم تلهـــه الآمـــال

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد، من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ مـــن ذا يترضـــى

عنك بعد الموت؟

ثم يقول:

أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حيـــاتكم؟ من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهـــو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله؟ ثم يبكـــي حـــتى يسقط مغشيًا عليه.

وكان عمر بن عبد العزيز – رحمـــه الله – يجمـــع العلمـــاء فيتذاكرون الموت، والقيامة، والآخرة، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

فليت هذا يكون حالنا اليوم...

وقد قيل: «من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة. ومن نسي المـــوت عوقـــب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة»[(١)].

فتفكر – يا أخي – في الموت وســـكرته، وصـــعوبة كأســـه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم مـــا أعدلـــه، كفى بالموت مقرحًا للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعـــات، وهادمًا للذات، وقاطعًا للأمنيات، فهل تفكرت في يوم مصـــرعك، وانتقالك من موضعك، وإذا نقلت من سعة إلى ضـــيق، وخانـــك

(١) التذكرة (١/٢٤).

الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشـــك وغطائك، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر، فيـــا جـــامع المال، والمجتهد في البنيان، ليس لك والله من مال إلا الأكفان.

أين الذي جمعته من المال؟

هل أنقذك من الأهوال؟

إذا علمت هذا، فاطلب فيما أعطاك الله — تعالى — من الـــدنيا الدار الآخرة، لا في الطين والماء والتجبر والبغي، واعلم أنك ستترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن، كما قال الشاعر:

نصـــيبك ممـــا تجمـــع الـــدهر كلـــه
رداءان تُلـــــوى فيهمـــــا وحنـــــوط

وكقول الآخر:

هـــي القناعـــة لا تبغـــي بهـــا بـــدلاً
فيهـــا النعـــيم وفيهـــا راحـــة البـــدن
انظـــر لمـــن ملـــك الـــدنيا بأجمعهـــا
هل راح منـــها بغـــير القطـــن والكفـــن؟

تذكر الموت سبب في التوبة

يروى أن ملكًا من ملوك أهل البصرة تنسك [١]. ثم مـــال إلى الدنيا والسلطان، فبنى دارًا وشيدها، وأمر بها ففرشت له ونجـــدت، واتخذ مائدة وصنع طعامًا ودعا الناس. فجعلـــوا يـــدخلون عليـــه ويأكلون ويشربون وينظرون إلى بنيانه ويعجبون من ذلك ويدعون له ويتفرقون.

فمكث بذلك أيامًا حتى فرغ من أمر الناس. ثم جلس ونفر من خاصة إخوانه، فقال: قد ترون سروري بداري هذه، وقد حـــدثت نفسي أن اتخذ لكل واحدٍ من ولدي مثلها، فأقيموا عنـــدي أيامًـــا استمتع بحديثكم وأشاوركم فيما أريد من هذا البناء لولدي. فأقاموا عنده أيامًا يلهون ويلعبون، ويشاورهم كيف يبني لولده، وكيـــف يريد أن يصنع.

فبينما هم ذات ليلة في لهوهم ذلك إذ سمعوا قائلاً من أقاصي الدار:

يـــا أيهـــا البـــاني والناســـي منيتـــه
لا تـــأملن فـــإن المـــوت مكتـــوب
لا تبـــنين ديـــارًا لســـت تســـكنها
وراجع النسك كيمـــا يغفـــر الحـــوب [٢]

ففزع لذلك وفزع أصحابه فزعًا شديدًا ، وراعهم ما سمعوا من

(١) من النسك، وهو العبادة.
(٢) الحوب: الإثم، وهو الذنب.

ذلك. فقال لأصحابه: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم. قال: فهل تجدون ما أجد؟ قالوا: وما تجد؟ قال: أجد والله مسكة على فؤادي، وما أراها إلا علة الموت.

قالوا: كلا، بل البقاء والعافية.

فبكى، ثم أقبل عليهم، فقال: أنتم أخلائي وإخواني، فمـــاذا لي عندكم؟ قالوا: مُرْنا بما أحببت من أمرك. فأمر بالشراب فـــأهريق، ثم أمر بالملاهي فأخرجت، ثم قال: اللهم! إني أشهدك ومن حضرني من عبادك أني تائب إليك من جميع ذنوبي، نادم على ما فرطت في أيام مهلتي [(١)]، وإياك أسأل إن أقلتني [(٢)] أن تتم نعمتك علي بالإنابة إلى طاعتك، وإن أنت قبضتني إليك أن تغفر لي ذنوبي تفضلاً منك علي. واشتد به الألم، فلم يزل يقول: الموت والله [(٣)]! الموت والله! حتى خرجت نفسه. فكان الفقهاء يرون أنه مات على توبة [(٤)].

---

(١) مهلتي: أي غفلتي.

(٢) أقلتني: صفحت عني وتجاوزت.

(٣) أي: هذا هو الموت والله.

(٤) «كتاب التائبين من الملوك والسلاطين» لابن قدامة ص١١-١٣ ط. مؤسسة الريان.

مما قيل في الحث على تذكر الموت

أيها الأخ الكريم:

أجزم أنك قد فقدت في يوم من الأيام أبًا وأخًـــا أو أمًـــا أو صاحبًا أو جارًا أو قريبًا من أقاربك، فهل تـــذكرت الحـــال الـــتي وردها؟ والمآل الذي صار إليه؟!

وهل اعتبرت وفكرت في المكان الذي انتقل إليه؟!

وهل تخيلت انفرادك في قبرك؟!

لا زوجة، ولا أم، ولا أب، ولا صاحب!

ألقوك في قبرك، فأهالوا عليك التراب، ثم ذهبـــوا وتركـــوك! تذكر أنك قد تترك الحياة بكل ما فيها الآن. الآن قبل أن تقوم من مقامك هذا الذي تقرأ فيه هذا الكلام الذي أكتبه إليك؟ وعندئـــذ تترك كل شيء، تترك أهلك، وأمك، وأباك، وإخوتك، وأخواتك وأصحابك، ولا ينفعك إلا عملك الصالح... تنفعك دمعة صـــادقة جرت منك خالصة للواحد الأحد ... تنفعك صدقة تصدقت بها في يوم من الأيام، لا تريد بها إلا العمل للدار الآخرة.

ينفعك علم ينتفع به، تعلمته، وعملت به، وعلمتـــه للنـــاس. ينفعك ولد صالح ربيته على الكتاب والسنة، فدعا لـــك بـــالمغفرة والرحمة ...

هذا الذي ينفعك غدًا في الدار الآخرة، وأما غيره فـــلا ... إذا علمت ذلك، فاستمع إلى ما قيل في الحث على تذكر الموت، قـــال

ابن حبان البستي: «كم من مكرم في أهله، معظم في قومه، مبجـــل في جيرته، لا يخاف الضيق في المعيشة، ولا الضنك في المصـــيبة، إذ ورد عليه مذلل الملوك، وقاهر الجبابرة، وقاصم الطغاة، فألقاه صريعًا بين الأحبة وجيرانه، مفارقًا لأهل بيته وإخوانه، لا يملكون له نفعًا، ولا يستطيعون عنه دفعًا. فكم من أمة قد أبادها الموت، وبلدة قـــد عطلها، وذات بعل قد أرملـــها، وذي أب أيتمـــه، وذي إخـــوة أفرده»[1].

وعن أحمد بن محمد بن مصعب الشافعي عن عبد الله بن محمد قال: سمعت عبيد الله بن مسلم بن زياد الهمداني قال: سمعت عمـــر بن ذر يقول: ورث فتى من الحي دارًا عن آبائه وأجداده فهـــدمها، ثم ابتناها وشيدها، فأُتِي في منامه، فقيل له:

إن كنت تطمع في الحياة فقد ترى   أرباب دارك ســاكَنُوا الأمـــوات

أنى تحس من الأكـــارم ذكـــرهم؟   خلت الديار وبـــادت الأصـــوات

قال: فأصبح الفتى مغتاظًا قد أمسك عن كثير مما كان يصـــنع، وأقبل على نفسه.

وعن ذهل بن أبي شراعة القيسي قـــال: حـــدثتني ســـكينة — وكانت علامة –قالت: قال لي أبو العتاهية: دخلت على هـــارون أمير المؤمنين، فلما بصرني قال: أبو العتاهية؟ قلت: أبو العتاهيـــة، قال: الذي يقول الشعر؟ قلت: الذي يقول الشعر. قـــال: عظـــني بأبيات شعر، وأوجز ، فأنشدته:

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبان البستي ص٢٨٥.

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ولو تمنعت بالحجــاب والحــرس
واعلم بأن سهام الموت قاصــدة لكــل مــدَّرع منــا ومتَّــرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها؟ إن السفينة لا تجري على اليَــبَس

قال: فخر مغشيًا عليه.

وعن الوضاح بن حسان قال: سمعت ابن السماك يحدث قال: بينما صياد في الدهر الأول يصطاد السمك، إذ رمــى بشــبكة في البحر، فخرج فيها جمجمة إنسان، فجعل الصياد ينظر إليها ويبكي، ويقول: عزيز فلم تُترك لعزك، غنيٌّ فلم تُترك لغناك، فقير فلم تُترك لفقرك، جواد فلم تُترك لجوادك، شديد فلم تُترك لشدتك، عالم فلم تُترك لعلمك؟ يردد هذا الكلام ويبكي (١).

قال ابن حبان:

وأنشدني الكريزي:

أموالنا لذوي المــيراث نجمعهــا ودورنا لخــراب الــدهر نبنيهــا
والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت أن السلامة فيها تــرك مــا فيهــا
فلا الإقامة تنجي النفس من تلف ولا الفرار من الأحداث ينجيهــا
وكل نفــس لهــا وَزْر يصــبحها من المنيــة يومًــا أو يمســيها (٢)

ومما قيل في التذكير بالموت قول ابن أبي زمنين:

الموت في كل حين ينشر الكفنــا ونحن في غفلة عمّــا يــراد بنــا

---

(١) روضة العقلاء ص٢٨٦.
(٢) المرجع السابق.

لا تطمــئن إلى الــدنيا وبهجتــها وإن توشحت من أثوابها الحســنا
أين الأحبة والجيران مــا فعلــوا أين الذين همُ كانوا لنــا ســكنًا؟
سقاهم الموت كأسًا غير صــافية فصيرهم لأطبــاق الثــرى رهنًــا
تبكي المنازل منهم كل منســجم بالمكرمات وترثــي الــبر والمننــا
حسب الحمام لو أبقاهم وأمهلهم ألاّ يظن علــى معلومــه حســنًا

قالوا على فراش الموت

قال ابن المهدي:

لما احتضر سفيان الثوري – رحمه الله – بكى وجزع، فقلت له: يا أبا عبد الله! ما هذا البكاء؟! قال: يا أبا عبد الرحمن، لشدة ما نزل بي من الموت. الموت – والله – شديد. فمسسته، فإذا هو يقول: رُوح المؤمن تخرج رشحًا، فأنا أرجو. ثم قال: الله أرحم من الوالدة الشفيقة الرفيقة، إنه جواد كريم، وكيف لي أن أحب لقاءه، وأنا أكره الموت. فبكيت حتى كدت أن أختنق، أخفي بكائي عنه، وجعل يقول: أوه ...، أوه من الموت. ثم قال: مرحبًا برسول ربي، ثم أغمي عليه، ثم أسكت حتى أحدث، ثم أغمي عليه، فظننت أنه قد قضى، ثم أفاق، فقال: يا عبد الرحمن! اذهب إلى حماد بن سلمة، فادعه لي، فإني أحب أن يحضرني. وقال: لقني قول: لا إله إلا الله. فجعلت ألقنه.

قال: وجاء حماد مسرعًا حافيًا، ما عليه إلا إزار، فدخل وقد أغمي عليه، فقبل بين عينيه، وقال: بارك الله فيك يا أبا عبد الله. ففتح عينيه، ثم قال: أي أخي، مرحبًا. ثم قال: يا حماد! خذ حذرك، واحذر هذا المصرع [1].

وقال المسعودي:

شكوا في موت المعتضد بالله (الخليفة العباسي) فتقدم إليه

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٧/٢٥٠-٢٥١).

الطبيب، وجس نبضه، ففتح عينيه، ورفس الطبيب برجله، فتدحاه أذرعًا، فمات الطبيب، ثم مات المعتضد من ساعته.

ولما احتضر أنشد لنفسه:

تمتــع مــن الــدنيا فإنــك لا تبقــى
وخذ صفوها ما إن صــفت ودع الرنقــا (١)
ولا تــــأمنن الـــــدهر إني ائتمنتــــــه
فلـــم يبـــق لي حـــالاً ولم يـــرع لي حقًـــا
قتلـــت صـــناديد الرجـــال فلـــم أدع
عـــدوًا ولم أمهـــل علـــى ظنـــه خلقًـــا
وأخليت دار الملــك مــن كــل نــازع
فشــــردهم غربًـــا ومزقتــــهم شــــرقًا (٢)

وقيل لأبي العتاهية (ت٢١١هـــ) عند الموت: ما تشتهي؟

قال: أشتهي أن يجيء مخارق فيضع فمه على أذني، فينشدني:

سيُعرض عند ذكــري وتُنســى مــودتي
ويحـــــدث بعـــــدي للخليـــــل خليـــــل
إذا ما انقضت عني مــن الــدهر مــدتي
فــــإن غنـــــاء الباكيــــات قليــــل

وقال أبو العتاهية لابنته رقية في علته التي مات فيها: يا بنيـــة،

---

(١) الرنق: الكدر.

(٢) «عظماء على فراش الموت» لعلي يوسف بديوي ص٧٨.

ارثي أباك واندبيه بهذين البيتين:

فندبته بقوله:

لعـــب البلـــى بمعـــالمي ورســـومي
وقـــبرت حبًـــا تحـــت ردم همـــومي
لـــزم البلـــى جســـمي فـــأوهن قـــوتي
إن البلـــــى لموكـــــل بلزومـــــي

ويروى في ترجمة سيبويه (أستاذ النحاة) أنه ارتحل إلى خراسان ليحظي عند طلحة بن طاهر، فإنه كان يحب النحو، فمرض هنـــاك مرضه الذي توفي فيه، فتمثل عند الموت:

يؤمـــل دنيـــا لتبقـــى لـــه فمـــات المؤمـــل قبـــل الأمـــل
يـــربي فســـيلاً [١] ليبقـــى لـــه فعاش الفســـيل ومـــات الرجـــل

ويقال: إنه لما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه، فدمعت عين أخيه، فاستفاق، فرآه يبكي، فقال:

وكنـــا جميعًـــا فـــرق الـــدهر بيننـــا
إلى الأمد الأقصى فمـــن يـــأمن الـــدهرا

---

(١) الفسيل: جمع فسيلة وهي النحلة الصغيرة.

قصيدة زهدية

من لحظة الاحتضار حتى المواراة في التراب

مَنْ الغريب؟

للإمام علي زين العابدين [(١)]

ليس الغريــب غريــب الشــام والــيمن
إن الغريــب غريــب اللحــد والكفــن
تمــر ســاعات أيــامي بــلا نــدم
ولا بكــاء ولا خــوف ولا حــزن
ســفري بعيــد وزادي لا يــبلغني
وقســمتي لم تــزل والمــوت يطلــبني
مــا أحلــم الله عــني حيــث أمهلــني
وقــد تماديــت في ذنــبي ويســترني
أنــا الــذي أغلــق الأبــواب مجتهــدًا
علــى المعاصــي وعــين الله تنظــرني
يــا زلــة كتبــت! يــا غفلــة ذهبــت!
يــا حســرة بقيــت في القلــب تقــتلني
دع عنك عذلي يــا مــن كــان يعــذلني
لو كنت تعلــم مــا بي كنــت تعــذرني

(١) نقلاً عن كتاب: مهلاً يا جامع الدنيا ص (١٢ : ١٤).

دعــــني أنـــوح علـــى نفســـي وأنـــدبها
وأقطـــع الـــدهر بالتـــذكار والحـــزن
دعــــني أســـح دموعًـــا لا انقطـــاع لهـــا
فهـــل عســـى عـــبرة منـــها تخلصـــني
كـــأنني بـــين تلـــك الأهـــل منطرحًـــا
علـــى الفـــراش وأيـــديهم تقلـــبني
وقـــد أتـــوا بطبيـــب كـــي يعـــالجني
ولم أر مـــن طبيـــب اليـــوم يـــنفعني
واشـــتد نزعـــي وصـــار المـــوت يجـــذبها
من كـــل عـــرق بـــلا رفـــق ولا هـــون
واســـتخرج الـــروح مـــني في تغرغرهـــا
وصار في الحلـــق مـــرًا حـــين غرغـــرني
وغمضـــوني وراح الكـــل وانصـــرفوا
بعـــد الإيـــاس وجـــدُّوا في شـــرا كفـــني
وقام مـــن كـــان أولى النـــاس في عجـــل
إلى المغســـــل يـــــأتيني يغســـــلني
وقـــال يـــا قـــوم نبغـــي غاســـلاً حـــذقًا
حـــرًا أديبًـــا أريبًـــا عارفًـــا فطـــن
فجـــائني رجـــل منـــهم فجـــردني
مـــن الثيـــاب وأعـــراني وأفـــردني

وأطرحــوني علــى الألــواح منفــردًا
وصــار فــوقي خريــر المــاء يــنظفني
وأســكب المــاء مــن فــوقي وغســلني
غســلاً ثلاثًــا ونــادى القــوم بــالكفن
وقـــدموني إلى المحـــراب وانصـــرفوا
خلـــف الإمـــام فصـــلى ثم ودعـــني
صـــلوا علـــي صـــلاة لا ركـــوع لهـــا
ولا ســـجود لعـــل الله يـــرحمني
وأنزلـــوني في قـــبري علـــى مهـــل
وأنزلـــوا واحـــدًا منـــهم يلحـــدني
وكشف الثــوب عــن وجهــي لينظــرني
وأســبل الــدمع مــن عينيــه أغــرقني
فقـــام محتزمًـــا بـــالعزم مشـــتملاً
وصــفف اللــبن مــن فــوقي وفــارقني
وقــال هلــوا عليــه التُــرب واغتنمــوا
حسن الثــواب مــن الــرحمن ذي المــنن
وأودعـــوني ولجـــوا في ســـؤالهمو
مـــالي ســـواك إلهـــي مـــن يخلصـــني
في ظلمـــة القـــبر لا أُم هنـــاك ولا
أب شـــفيق ولا أخ ليؤنســـني

وأودعـــــوني ولجـــــوا في ســـــؤالهمو
مـــا لي ســـواك إلهـــي مـــن يخلصـــني
وهـــالني صـــورة في العـــين إذ نظـــرت
من هول مطلع مـــا قـــد كـــان أدهشـــني
مـــن منكـــر ونكـــير مـــا أقـــول لهمـــا
إذ هـــالني منـــهما مـــا كـــان أفـــزعني
فـــامنن علـــي بعفـــو منـــك يـــا أملـــي
فـــإنني موثـــق بالـــذنب مـــرتهن
تقاسم الأهـــل مـــا لي بعـــدما انصـــرفوا
وصـــار وزري علـــى ظهـــري فـــأثقلني
فـــلا تغرنـــك الـــدنيا وزينتـــها
وانظـــر إلى فعلـــها في الأهـــل والـــوطن
وانظر إلى مـــن حـــوى الـــدنيا بأجمعهـــا
هـــل راح منـــها بغـــير الـــزاد والكفـــن
خـــذ القناعـــة مـــن دنيـــاك وارض بهـــا
ولـــو لم يكـــن لـــك إلا راحـــة البـــدن
يا نفس كفي عـــن العصـــيان واكتســـبي
فعـــلاً جمـــيلاً لعـــل الله يـــرحمني

فهرس العناوين